شانغري لا

ناصر الرباط ❖

ولدتُ في حيّ عتيق في قلب دمشق القديمة يسمّى حيَّ القيمرية لأنّ أمراء أكرادًا يُدْعون «الأمراءَ القيمرية» جاءوا مع صلاح الدين الأيوبي ونزلوه فعُرف بهم. كان بيتنا يُطلّ على زقاق رابعة العدوية، الذي يصبّ على جادة القيمرية، الآخذةِ شرقًا من الجامع الأموي، الذي كنا نؤمّه للصلاة باستمرار.

كان شكري القوّتلي وقتَ مولدي رئيسًا للجمهورية السورية الساعية إلى نيل استقلالها عن فرنسا، ورئيسًا للكتلة الوطنية التي تعاطفَ أبي مع سياساتها على الرغم من عدم اهتمامه بالسياسة أصلاً. فأسماني شكري، تيمُّنًا بشكري بك.

كان مجالُ حياتي المبكّرة بيتَ الأسرة، بقاعته المكسوّةِ بالخشب الملوّن والمشغول، وديارِه الرحبة، وبركتِها الحجرية الكبيرة نسبيّاً مع نافورتها المستدقّة التي يبقبق الماءُ منها على مدار الساعة، وتحيط بها ثلاثُ شجرات مثمرة: شجرةُ درابزين خرمسي ـ تلك الفاكهة الفوّاحة التي اشتُهرتْ بها بيوتاتُ دمشق ـ وشجرةُ كباد وشجرةُ ليمون، تعربشتُ على أغصانها كلِّها ووقعتُ منها مرارًا وحماني القدرُ من أن أصاب بعاهةٍ مستديمةٍ جرّاء سقطاتي المتكرّرة.

كنتُ ولدًا مشاغبًا منذ نعومة أظفاري: أطارد الحيوانات الصغيرة، وأقتل الزواحف التي كانت تلطو في الأماكن النائية من البيت، وأصطاد العصافير، وأضرب الأولاد الآخرين في الحارة لأسباب تافهة أو بغيرِ ما سبب. ولكنّي كنتُ جميلاً بشعري الأشقر المتموّج الذي ورثْتُه عن عائلة أمي، وقامتي المنتصبة، وعضلاتي المفتولة بشكلٍ طبيعي من قبل أن أتعهّدها بالتمرين لاحقًا. ربما لذلك أصبحتُ مفضّلَ أمي ومدلّلَها، وإنْ بعد توافُدِ أولادها الخمسة الآخرين، وهم ثلاثةُ صبيان وبنتان: لي الرعايةُ والاعتناءُ والاحترامُ، ولي أيضًا أكبرُ قطعةٍ لحمٍ بعد أبي، وزبديةُ النقوع الأغنى بالمكسّرات، بعده طبعًا أيضًا. وكانت أمي تحبّ صحبتي وتَطْلبها، وظلّت تأخذني معها إلى حمّام السوق في اليوم المخصّصِ للنسوان بعد أن كبرتُ واقتربتُ من سنّ الحلْم ونَبَتَ الزغبُ على شفتي العليا، ولم يردعْها سوى تدخُّل المعلمة يومًا لتمنعني من الدخول بعد أن اشتكت بعضُ الزبونات من أنّي أُطيل التحديقَ في عُريهنّ. وصرتُ أقضي أغلبَ وقتي خارج البيت، إمّا في مشغل أبي، أو متسكّعًا في الحارات، أو مزروبًا في مدرسةٍ ما، قبل أن تقرِّر الإدارةُ طردي بسبب عنفي وشغبي، وتبدأ رحلةُ العذاب ثانيةً مع أبي للتفتيش عن مدرسةٍ أخرى تَقْبلني.

كان أبي تاجرًا ميسورًا، استطاع بسليقته فهمَ مبادئ التجارة والمضاربة ونجح فيهما كلتيْهما. كان يملك عدةَ مشاغل لصنع الملابس والمنسوجات. وكان معروفًا ومحترمًا ومَهيبًا في السوق، وقد أراد لي أن أتعلّم صنعتَه وأن أرثَ عملَه بعد أن أُكمل الدراسةَ الثانوية. ولكنّه كان مشغولاً دائمًا بعمله وأصحابه ومشاويره خارج البيت. وكان أيضًا مَلولاً وقليلَ الصبر، وبخاصةٍ مع شخصيتي الصعبة التي لم يجد مفرّاً من تقويمها بالعنف: ضربًا، وشتمًا، وإهانةً، بالإضافة إلى قَطْعِ مصروفي عنّي بين الحين والآخر. ولكنّه كان يحبُّني بطريقته الغامضة ويتوق إلى أن أسيرَ على منهاجه. أما أنا فكان شعوري نحوه مزيجًا من الرهبة والغيرة، عَبّرتُ عنهما من خلال عنادي ومشاغبتي، وربما أيضًا من خلال تعثّري في المدرسة، وإنْ أحببتُ بعضَ الموادّ مثل التاريخ والرياضيات. ولكنّي كنتُ مأخوذًا بشخصية القبضاي التي أردتُ أن أنسجَ شخصيتي على مقياسها. فأصبحتُ ولدًا مشاكسًا ومقاتِلاً ومؤذيًا، وتزعّمتُ عصابةً من صبيان الحارة كانت تضطهد المستضعفين وتمارس مختلفَ الألاعيب الثقيلة والسمجة على أصحاب المتاجر وعلى المارّة، وعلى الفتيات بعد بضع سنوات، في مختلف أرجاء المدينة التي أصبحتْ أحياؤها الجديدةُ بشوارعها العريضة ومحالّها الحديثةِ مرتعًا لنا.

وسرعان ما أصبحتُ محطَّ أنظار البنات، بقامتي الممشوقة، وعضلاتي، وعينيَّ الخضراويْن الجريئتيْن، وخصلاتِ شعري الذي تركتُه يتهدّل على جبيني مع أنّي كنت أحلقه من الجوانب تمامًا. وغرّني هذا التطوّرُ، وبادلتُ الفتيات نظراتِهنّ بنظراتٍ وقحةٍ تفوح منها الرغبةُ، على الرغم من أنّ مجتمع الحارة المحافظ لم يسمحْ لهذه النظرات بالتطوّر إلى أبعد من ذلك. ولكنّ الحال كان مختلفًا في الأسواق

❖ ـ كاتب سوري. أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T).

الجديدة حيث البناتُ السافراتُ والجريئات، وحيث العاملاتُ المتواضعاتُ في المخازن، ذواتُ الأصل القروي، أو بناتُ الأقليّات، اللاتي كنّ يتحرّقن شوقًا إلى علاقات عاطفية مع شباب الطبقات المرفّهة، علاقاتٍ تحاكي ما كنّ يرينه على الشاشة الفضيّة، التي غَزَتْ دمشقَ بكثافةٍ في تلك الأيام، من قصص حبّ لذيذةٍ بين أمثال عبد الحليم حافظ وشادية، أو هَمْفري بوغارت وكاثرين هيبورن، أو جان لوي ترنتيتيان وأنوك إيميه. وصرتُ أنا أيضًا أتشبّه بأبطال الشاشة الفضيّة، ولاسيّما مارلون براندو الذي مَثَّلَ لشباب ذلك الوقت نموذجَ الفتى المغامر واللامبالي. وأصبحتُ، عندما أخطو خارج الأسواق القديمة، حيث يمكن أن يتعرّفَ إليّ بعضٌ من معارف أهلي، أُخرج مشطي من جيبي الخلفي، وأموِّج خصلاتي فوق جبيني، وأشتري علبةَ سجائر «لاكي ستراي‌ك» حمراءَ وبيضاءَ وألفّها داخل كُمّ قميصي الذي يَكْشف عن عضلات ذراعيّ القويتيْن، وأتهادى في الشوارع مزهوّاً بشكلي وقوتي وبفاعتي، يحيط بي رفاقي الذين اعترفوا ضمنًا بزعامتي وإنْ لم يصرِّحوا بها. وكنّا نحوم حول بعض الفتيات الجميلات العاملات في المخازن الحديثة على شارع بور سعيد، الذي أُعيدتْ تسميتُه كذلك بعد حرب الـ ٥٦، آملين في أن نحصلَ منهنّ على ما هو أكثرُ بكثيرٍ من نظرةٍ ولهى أو بسمةٍ خجلى أو احمرارِ خدودٍ مفاجئ.

❖ ❖ ❖

كانت جهينة واحدةً من هاته البنات: سمراءَ أخّاذةً، مع قدٍّ ملفوفٍ ودلعٍ متغنّج. وكانت تحيطني بكثير من الاهتمام كلما دخلتُ، وأصحابي، «المخزنَ الهندي» حيث كانت تعمل. فتنظر إليّ مطوّلاً، وتُقْلت منها إيماءاتٌ وحركاتٌ معبِّرة. وقد بادلتُها الاهتمامَ. ثم كان يومٌ عدتُ فيه إلى المخزن عند انتهاء الدوام، وسرتُ معها إلى موقف الترامواي، وتواعدْنا على اللقاء والذهاب إلى السينما. أخذتُها من أمام المحلّ بسيارة أبي الشيفروليه الكبيرة، وجلسنا في الصالة المعتمة نتفرّج على فيلمٍ عاطفي فرنسي كانت هي قد اختارته. ثم شددتُها إليّ وقبّلتُها، فاستجابت لقبلتي بقبلةٍ أشدّ لهفةً. ثم اقتربتْ بكلّ جسدها منّي والتصقت بي، إلى حين انتهاء الفيلم وإنارةِ الصالة. وصار هذا دَيْدَنَنا: لقاء، وسينما، وقُبَل، وشدٌّ، وجذبٌ، ومحالٌ للحلوى حيث أجلس قبالتها بعد الفيلم وأتلذّذ برؤيتها تلتهم البوظةَ وتعضّ على الكرزة الحمراء وهي تنظر إليّ نظراتٍ مليئةً بالإغراء.

أحبَبْتُني تلك القرويةُ الجميلة، ورأت فيّ فتى أحلامٍ شبيهًا بأبطال الشاشة. ولا أعْلم إنْ كانت مشاعري تجاهها حبّاً أو غيرَ ذلك، ولكني كنتُ قَطْعًا منجذبًا إليها، مفتونًا بجمالها وجسدِها وجرأتها التي لم أعهدْها من قبل. وسألتُها يومًا أن تأتي معي إلى شقّةِ صديقٍ لي في أعالي حارات المهاجرين، فقبلتْ، ونمنا معًا، وفَقَدتْ عذريتَها من دون أن تطالب بشيء، ولو ببعض الحنان والحب ربما. وأعدنا الكَرّة مرارًا، واعتدنا هذه اللعبةَ الجديدةَ واستمرأناها. ونسينا، بعد مضيّ بعض الوقت، أن نأخذ احتياطاتِنا في الدخول والخروج من الشقة، فضَبَطَنا بعضُ الجيران يومًا ونحن خارجان معًا وأخذونا إلى مخفر المهاجرين.

اتّصل الضابطُ المناوبُ بوالدي عندما سمع اسمَ عائلتي وتعرّف عليه، وسأل جهينةَ عن أهلها لأنّها كانت أصغرَ من السنّ القانونية، على حين كنتُ قد تجاوزتُ الثامنة عشرة بقليل. تلعثمتْ جهينة، وبكت، واستعطفت الضابطَ، وقالت له إنّ أهلها في قريتهم البعيدة لا يعرفون شيئًا عن حياتها في العاصمة سوى أنّها تعمل وتَكسب وتُرسل إليهم النقودَ باستمرار. وقالت إنّهم قد يذبحونها لو علموا بفعلتها. ثم جاء أبي متجهِّمًا، غاضبًا، وعاصفًا، وانهال عليّ بالسّباب والصفع فور أنْ وقعتْ عيناه عليّ من دون أن يستوضح من الضابط ملابسات الحادثة. تلقّيْتُ غضبَه وشتائمَه وضرباته من دون أن أهتزّ أو أتكلّم. ثم توقّف عن الضرب بعد أن انقطع نَفَسُه، وتطلّع إلى الضابط الذي أخبره أنه قد امتنع عن فتح مَحْضرٍ إلى حين قدومه في محاولةٍ منه لدرء الفضيحة. واستمع إليه والدي يروي له ما عرفه عن علاقتنا. توقّف أبي عند اسم البنت واسمِ عائلتها، اللذيْن يدلاّن على دينها المغاير وأصلها القروي. ثم نظر نحوها وهي تخفي وجهَها بين يديها

وتبكي في زاوية المكتب، وسَبَّها بأقذع الألفاظ، ولَعَنَها ولَعَنَ الساعةَ التي نزلتْ فيها من ضيعتها لتُغوي شبابَ المدينة علّها تَعْلق بواحدٍ أبله منهم ويتزوّجها. ثم التفت إليّ وصاح: «ملعون أنتَ ألفَ مرة ولآخر العمر! اغربْ عن وجهي، فلستُ أباك ولستَ ابني، وها أنا أُشْهد الضابطَ والمعاونَ والحاضرين على ذلك.» ثم أكمل موجّهًا كلامَه إلى الضابط: «افتحْ محضرًا يا سيادة الضابط، واسجنْهما وبَهْدِلْهما. لا يهمّني قطّ ما تفعله بهما.» ثم خرج من المخفر كما جاء من دون أن يلتفت إليّ مرةً واحدة.

أُسقط في يد الضابط ولم يدرِ كيف يتصرّف، وإنْ بدا لي إنسانًا حكيمًا وخبيرًا بنزعات النفس الإنسانية، وربما عطوفًا أيضًا. التفت إلى الجمع الحاضرين وشكرهم على غيرتهم على الأخلاق العامة وطلب إليهم الانصرافَ، على أن يأخذ هذه القضيةَ على عاتقه. ولم تكن جهينةُ قد كفّت عن النحيب، وإنْ أصبح بكاؤها قريبًا إلى الثغاء منه إلى البكاء: متقطّعًا، خافتًا، مستعطِفًا، خائرًا. أما أنا فكنتُ أنظر أمامي بنظرة خالية، وخطٌّ رفيعٌ من الدم يسيل من منخري، وأنا أرتعش خوفًا وغضبًا مكبوتًا، ولا أتفوّه بكلمة. أخبرنا الضابط أنّه لن يسجّل هذه القضية، ثم انطلق يعطينا عظةً أخلاقيةً، ونصحنا بأن نعود إلى حياتنا المعتادة وألاّ نتقابل أبدًا بعد ذلك لأنّنا صغيران ولأنّ أسرتيْنا لن تقبلا أبدًا بزواج بيننا. ثم حاول أن يهدِّئ من روْع جهينة التي سكتتْ تمامًا، وإنْ كانت الدموعُ مازالت تتدحرج على خدّيْها بين الحين والآخر من دون أيّ بكاءٍ يصاحبها، وسأل المعاونَ أن يأخذَها بسيارة المخفر إلى مكان إقامتها، واستبقاني لكي يعطيني محاضرةً ثانيةً عن الحياة والمسؤولية والعائلة ولكي يحلّفني بألاّ أحاول الالتقاءَ بجهينة ثانيةً.

وقبلتُ.

❖ ❖ ❖

هل كان قبولي قطعَ علاقتي مع جهينة جبنًا، أمْ تهربًا من المسؤولية، أمْ دليلَ طيشٍ وصِغَرِ سنٍّ وقلّةِ تجربة؟

لا أعلم أيّ هذه العوامل كان الأقوى، ولكنّها كانت كلُّها مؤثّرة في قراري. وكان قراري الثاني ألاّ أعودَ إلى بيت أهلي، بل ذهبتُ للإقامة عند عمّةٍ عجوزٍ لي كانت قد تنازعتْ مع أبي على إرثٍ ما ذاتَ يوم، وتوقّفا عن الكلام. قبلتْ عمتي إقامتي عندها على مضض، ربما لكي تغيظَ أبي. ولمّا لم تكن لي صنعةٌ، وكنتُ قد قرّرتُ عدمَ العودة إلى المدرسة، فقد قضيتُ غالبيةَ وقتي في التسكّع ورسمِ خططٍ للانتقام من أبي ومن سكّان الحارة العالية في المهاجرين.

نفدتْ مني نقودي، واستنفدتُ كلَّ مصادر الدَّيْن من أصحاب وأقارب، وابتدأ تذمُّرُ عمتي من وجودي يعلو. فقرّرتُ أن ألجأ إلى حلّ جذريّ لأتفادى شماتةَ الجميع. فتقدّمتُ بطلب هجرة إلى الولايات المتحدة، أرضِ اللبن والعسل، وبلدِ مارلون براندو وإلفيس پرسلي، بطليَّ اللذين كنتُ أتتبّع أخبارَهما وأشاهد أفلامَهما وأحلم بأن أكون مثلَهما يومًا ما. وقُبِل الطلبُ بالمصادفة لأنّ الحكومة الأمريكية يومها كانت تحاول ملءَ شواغر في أرقام الهجرة وقررتْ أن تعطي السوريين عددًا إضافيًّا من التأشيرات.

غادرتُ دمشق من دون أن أرى أبي، ولو أنّي مررتُ على أمي في البيت خلال النهار لكي لا أصادفه هناك. استقبلتني أمي بالعتاب على فعلتي واختفائي بعدها، ولكنها سرعان ما ضجّت بالعويل والبكاء عندما علمتْ بقراري الهجرةَ إلى أمريكا التي «لا يعود منها أحد» على حدّ تعبيرها. ولكنّها مع ذلك أعطتني مبلغًا محترمًا من المال لا أعلم من أين استخلصتْه لمساعدتي في غربتي. فشكرتُها وقبّلتُها وقبّلتُ يديها وأنا أدمع قليلاً، وقبّلتُ أختيّ الصغيرتيْن اللتيْن كانتا تحومان حولي أملاً في أن أحملَهما عاليًا كما عوّدتُهما، ولكنّي لم أفعل. وانطلقتُ من المنزل الذي لن أراه ثانيةً في حياتي، من دون ولو التفاتةٍ إلى الوراء.

❖ ❖ ❖

وصلتُ إلى أميركا وذهبتُ فورًا إلى لوس أنجلس لكي أكون أبعدَ ما يمكن عن أبي ودمشق، ولكي أكون قريبًا من مَثَلي الأعلى مارلون براندو وغيره من نجوم هوليوود، وقريبًا أيضًا من استديوهات السينما التي أَمِلتُ أن أعمل فيها. ولكنّ أحلامي في العمل في التمثيل لم تتحقّقْ بالطبع: فالمدينة مليئةٌ بأمثالي من الشباب الحالمين والجذّابين الذين يَقْضون حياتَهم وهم يتعقّبون فرصًا هاربةً للظهور على الشاشة الفضيّة ويتقاعدون بعد عمرٍ مديدٍ ـ سائقي تاكسي، أو خَدَمًا في مطاعم، أو كومپارسًا في أحسن الأحوال.

لم يَطُلْ بي الوقتُ حتى نفدت النقودُ التي أعطتني إياها والدتي، واختفى آخرُ بصيص أملٍ في أن يكتشفني أحدُهم لأمثّل دورَ شابّ متهوّر كمارلون براندو، أو عاشقٍ عربي كرودولف ڤالنتينو، أو قائدِ ثورة في الصحراء كعمر الشريف. فعملتُ سائقَ شاحنة نَقْلٍ بين جنوب كاليفورنيا وشمالها ووسطها، أَنْقل الخُضرَ والفواكهَ من مزارع الولاية إلى مخازن السوپر ماركت في المدن الكبرى. وصرتُ أقضي لياليَّ على طرقات كاليفورنيا، وأنام نهاراتي في موتيلاتها الصغيرة، آكلُ وجباتٍ سريعةً في مطاعمها، وأقضي أمسياتي وأنا أكرع البيرة في باراتها.

أصبح شكري «شاك» (Chuck) بالنسبة إلى رفاقي من سائقي الشاحنات الأجلاف، ولكن البسيطين والطيبي القلب والمهذارين. وكنتُ نموذجًا غريبًا لهم: عربي أشقر وطويل وقوي ويتكلّم بلكنة ثقيلة، ولكنّه يَحْفظ أغاني الروك المشهورة كلَّها عن ظهر قلب ويقلِّدها بدقّة متناهية خصوصًا بعد بضع كؤوس من الجعة ورشفةٍ أو اثنتين من البوربون. ولكنّي كنتُ أعاني وحدةً شديدةً لم تخفِّفها معاكساتُ الزملاء، ولا العلاقاتُ العابرةُ التي أقمتُها مع نساء مختلفات تعرّفتُ إليهنّ في أرجاء الولاية التي كنتُ أقطعها من الشمال إلى الجنوب على الأقل مرتيْن في الشهر.

تعرّفتُ إلى «سُو» (Sue) في مطعم صغير على الطريق السريعة ١٠١. كانت تعمل ممرِّضةً في وردية الليل في مستشفى في مدينة سانتا باربارا. عبلاء، ملفوفة، تفوح أنوثةً وشبقًا، وإنْ كانت وحيدةً. وربما كانت تأتي إلى مطعم سائقي الشاحنات لكي تلتقط رجالاً يؤْنِسون وحدتَها، ولاسيّما أنّ كثيرًا من سائقي الشاحنات يفضّلون القيادةَ بالليل... واللعبَ والتسكُّعَ في المطاعم والبارات نهارًا.

تزوّجتُ سُو بعد بضعة لقاءات كان الجنسُ فيها حميمًا، والعواطفُ جيّاشةً. تزوّجتُها لأنّي كنتُ وحيدًا، وربما لأنّها كانت مثيرةً لي وتُرْضيني وتحبُّني كما أنا. في كلّ الأحوال، كان زواجُنا ناجحًا: كلانا يعمل في الليل وينام حتى الضحى، الأمرُ الذي لا يتيح لنا فرصةَ لقاء الآخرين ومقارنةَ حياتهم بحياتنا والتذمُّرَ من مشاكلنا، وهو ما يشكّل في رأيي الطريقَ الأسهلَ إلى فشل أيّ زواج. وعشنا في شقة صغيرة على تخوم سانتا باربارا، وخفّفتُ من عملي في المناطق النائية لكي لا أقضي الوقتَ كلَّه بعيدًا عن سُو، التي شاركتْني حبِّي للبيرة ولأغاني الروك القديمة ولأفلام هوليوود، وإنْ لم تعرفْ شيئًا عن أصلي الدمشقي ولم تُبْدِ يومًا أيةَ رغبةٍ في التعرف إلى أهلي أو وطنِ نشأتي الأولى أو قصةِ قدومي إلى الولايات المتحدة واستقراري فيها.

بعد سنتين من زواجنا انتقلنا إلى هونولولو لأنّ سُو وجدتْ عملاً أفضلَ في مستشفى واكيكي بمعاش مُزْجٍ حقّاً، وإنْ كان عملاً ليليّاً أيضًا. ووجدتُ لنفسي عملاً كموزِّع للمشروبات على بارات الجزيرة التي لا يتجاوز طولُها عند أطول مقطع ٥٦ ميلاً، وهو ما عنى أنّي كنتُ أعود إلى البيت يوميّاً في الصباح لأنام ثم أستيقظ لأجلسَ أمام التلفزيون أو لأعملَ في الحديقة الصغيرة التي زرعتُ فيها بعضَ أشجار الفاكهة كما في البيوت الدمشقية التي لم أعد أَذْكرها إلا لمامًا وحدي إذ لم أتحدّث لسُو عنها قطّ.

خلَفْنا ولدين، ولكننا لم نملك الوقتَ الكافي لنَعْرفهما جيّدًا. فكبرا غريبين، وإنْ كانا ولديْن ممتازيْن وناجحين في مدرستهما. ولكنّهما هربا من الجزيرة، بعد أن أنهيا الدراسةَ الثانويةَ، إلى البرّ الكبير، كما تفعل غالبيةُ الشباب في هونولولو الذين يسأمون من الطقس غير المتغيّر وآفاقِ الجزيرة المحدودة. وعاشا بعيدًا عنّا، يأتيان إلى الجزيرة مرةً في السنة لقضاءِ «عيد الشكر» معنا، ثم يعودان أدراجَهما إلى حياتهما بعيدًا عنّا بأسرعِ ممّا جاءا.

هَرِمْنا معًا، سُو وأنا، وقاربنا التقاعدَ، ولكنّ مدّخَراتِنا كانت غيرَ كافية لتؤمِّنَ لنا عيشًا كريمًا. فقرّرنا المضيَّ قُدُمًا في عملنا سنواتٍ أطول علّنا نتمكّن من توفير معاشَيْ تقاعُدٍ لائقيْن. ولكنّ حادثَ سيارة مؤسفًا كَسَرَ ساقي وأجبرني على ترك عملي مع عاهةٍ مستديمةٍ وإنْ كانت طفيفة. وقعدتُ في البيت شهورًا عدةً ألوك ألمي وأتأفّف من عجزي وضعفي وقلّةِ نقودي.

مَلَّتْ سُو منّي، وأُضيفَ شعورُها السلبي تجاهي إلى ضيقها بعملها الذي يُلْزمها البقاءَ خارج البيت كلَّ ليلة.

❖ ❖ ❖

في تلك الفترة العصيبة جاءني خبرُ وفاة والدي، فبكيتُه قليلاً. ثم ماتت أمي بعده بقليل، فبكيتُها كثيرًا. ولزمتُ البيت وحدي ليالِيَ طويلةً أتجرّع البيرةَ، وأدخّن عددًا هائلاً من السجائر، وأتفرّج على أفلام عربية استأْجِرها من دكّان أرمني علّي أجد فيها بعضًا من ذكرياتي عن طفولتي وعن مشاعري الغضّة آنذاك تجاه الحياة والحب والأمل. ولكنّي لم أَعُدْ إلى دمشق قطّ. فالمسافة قد بعدتْ، والطباعُ والمشاربُ تغيَّرتْ، وصلاتُ القربى تقطّعتْ. ولم يبق لي اتصالٌ إلاّ بأختي الصغيرة التي كانت تقيم في السعودية وتحادثني بين الحين والآخر ربما للترويح عن نفسها من مِلل تلك البلاد القاتل، أو ربما لأنها مازالت تَذْكر وسامتي وتهوُّري ومرحي في شبابي وتتمنّى لو تعود تلك الأيامُ الخوالي التي وَفّرتْ لنا عيشًا هنيّاً ولامباليًا قبل أن تأخذَنا عصا الترحال والبحث عن لقمة العيش في كلّ صوب.

بعد نقاهتي من حادث السيارة ومن فقدان أمي، عدتُ إلى الخروج من البيت ليلاً بغياب سُو. تسكّعتُ وحيدًا في البارات، في حين انغمستْ سُو أكثرَ وأكثرَ في عملها، ربما درءًا للوحدة والعجز وتهيُّبًا من مواجهة التدهور الذي كان قد ابتدأ يَنْخر في علاقتنا. وبعد مشادّةٍ حاميةٍ في يوم من الأيام انهتْها سُو بعبارة: «إمّا أن تجدَ لحياتك معنًى ما أو أن تخرجَ من حياتي،» قررتُ أن أفتّشَ عن معنى لأني لم أحتمل التفكيرَ في العيش بعيدًا عن سُو التي كنت قد قضيتُ وإياها ستّاً وثلاثين سنة. ففتّشتُ عن عملٍ جديد لا يتطلّب منّي كثيرَ حركة بعد حادثي، وأردتُه ليليّاً لكي أقضي النهارَ مع سُو علّنا نستعيد بعضًا من دفء علاقتنا.

وجدتُ عملاً كحارس ليلي في متحف غريب في هونولولو (هاواي) اسمُه شانغري لا Changri La : قصر كبير يقوم على جرفٍ عالٍ يُطلّ على الماء ويشاهد المرءُ منه شاطئَ واكيكي، بفنادقه العالية الفخمة وشواطئه المزدحمة أبدًا. ولكنّ ما أغراني بالعمل في شانغري لا كان إحساسًا غامضًا بالألفة، أساسُه أصلُ المتحف وعمارتُه ومحتوياتُه. فشانغري لا، وهو كما علمتُ لاحقًا الاسمُ الذي أطلقه الكاتبُ الإنجليزي جيمس هيلتون في روايته **الأفق المفقود** على وادٍ خياليٍّ في قمم الهيمالايا، كان البيتَ الأثيرَ للوريثة الأمريكية المشهورة دوريس دوك، بَنَتْه على شاكلة القصور الإسلامية التي شاهدتْها خلال سياحاتها في العالم في ثلاثينيات القرن المنصرم. ولم توفِّرْ دوريس دوك نفقةً في تطعيم قصرها بكلّ ما أمكنها الحصولُ عليه من النماذج الفنية من سورية ومصر وتركيا وإيران وإسبانيا والهند: فجاء خليطًا عجيبًا مؤلّفًا من حديقةٍ مغولية، وتلار فارسي، وقاعةٍ عثمانية، وغرفةٍ دمشقية، وجلسةٍ مغربية، بالإضافة إلى باحاتٍ وزوايا أخرى، طَبَعَتْها دوريس دوك بطابعٍ فرديّ خاصّ. وقد أصبح البيتُ الآن متحفًا، كما أرادته صاحبتُه، يَعْكس ـ في آنٍ واحدٍ وبتناغمٍ أخّاذ ـ جمالَ الطبيعة في هاوايْ، وروعةً وغرائبيةَ الفن والعمارة الإسلاميين، ورهافةَ ذوق دوريس دوك، بالإضافة إلى ضربها عرضَ الحائط بكلّ القواعد التشكيلية على عادة الأثرياء المدلّلين في إيمانهم بحقّهم في إعادة صياغة العالم حولهم. ولكنّ البيت ـ المتحف مثّلَ بالنسبة إليّ مخزنَ ذكرياتٍ ظننتُها انطفأتْ.

وهكذا ابتدأتُ العملَ في شانغري لا. أصعد كلَّ مساء في الساعة الثامنة بسيارتي الصغيرة على طريق دايموند هيد إلى شارع كوتامانو، وأُبرز بطاقتي للحارس على مدخل المجمع، ثم أَنزل إلى موقف السيارات وأَركن سيارتي في أقصى الموقف، وأعود أدراجي إلى باحة الدخول المضاءة بشاعرية، ثم أَلِف إلى الداخل وأسجّل وقتَ دخولي، وأتسلّم مصباحي الكهربائي وجهازي اللاسلكي ومسدّسي، وأعود إلى مكتب المناوبين، حيث أجد رفيقَ ليلي الحارسَ الآخرَ «جيم،» الأسودَ الضخمَ القليلَ الكلام، فأحيّيه بـ «هاي فايڤ» وأمازحه بقفشةٍ ما عن الأكل والشراهة. ثم نُقفل البابَ الرئيسَ ونبدأ عملَنا بأن يمرّ واحدُنا في دورة الليل الأولى على الأجنحة ليتأكّد من إحكام إغلاق

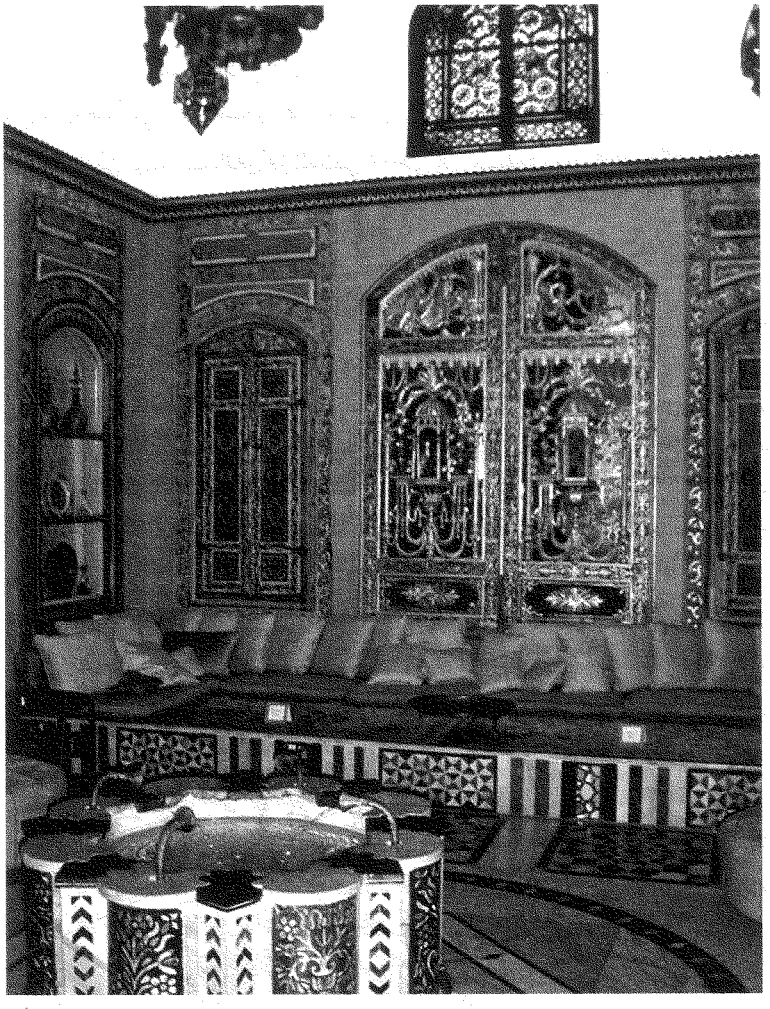

أبوابها ونوافذها. ونتبادل الدورات خلال الليل كلّه بمعدل دورة كلّ ساعة، نتفرّج على التلفزيون بين الدورات ونشرب القهوة، وأخرج أنا بين الفينة والأخرى لأدخّن سيجارةً في باحة الدخول، حيث إنّ التدخينَ في الداخل ممنوع وأجهزةَ الإنذار حسّاسة جداً.

كنتُ دومًا أطلب إلى جيم أن أقوم بجولة الهزيع الأخير من الليل: فأبدأ من صالة الدخول، وأخرج إلى الحديقة المغولية، ثم أنزل إلى حمّام السباحة وأسير بمحاذاته حتى أصل التلار الفارسي، وأتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأعود أدراجي الهويْنى إلى المبنى الرئيس، وأدخل إلى الغرفة الدمشقية وحيدًا، فأترك الأنوارَ مطفأةً، وأجلس هناك على المصطبة قرب النافذة المقوّسة التي تُطِلّ على المحيط فترةً تطول أو تقصر وأنا أتأمّل روائعَ الغرفة بحَفْرها الخشبي ورخامها الملوّن الأصيل؛ ذلك أنّ دوريس دوك اشترتْها من دمشق، من بيتٍ شبيهٍ ببيت أبي، وشحنتْها إلى هونولولو عندما كنتُ في حوالى العاشرة من عمري.

❖ ❖ ❖

أصبح دَيْدني كلَّ ليلة أن أشعلَ سيجارةً وأدخّنها أمام النافذة المفتوحة وأتذكّر، أو ربما أحلم: أتخيّل أبي في ليوانه يدخّن نرجيلتَه في العصريات، وصوتُ بقبقة مائها ينافس صوتَ ترقرق الماء من سنسولة النافورة الصغيرة في بركة الديار حيث كان الصبيُّ الذي كنتُه يخطِّط لعمليته التالية من تسلُّقِ شجرةٍ أو اصطيادِ عصفور، وأتخيّل وجهَ أمي الوضّاح وهي تقدِّم لي أجودَ قطعة لحم، بعد أبي بالطبع، وأتصوّرني أمشي الخُيَلاءَ في الحارة مزهوّاً بوسامتي وقوتي، وأتذكّر تأوّهات جهينة عندما كنتُ أَهْصرها بين ذراعيّ وأنا أتبسّم لنفسي. تلك كانت اللحظات الوحيدةَ التي أحسستُ فيها أنّي عدتُ إلى دمشق وأصبحتُ شكري ثانيةً.

كامبريدج، ماساشوستس